**المحاضرة الأولى : مدخل إلى الأدب الصوفي**

**تمهيد :**

شهد الأدب الصوفي مختلف أشكال التعبير شكلا جديدا تلاقت فيه العقائد والأديان ومجموعة من الأفكار تناغمت مع إيقاع الحياة الإنسانية وقد استطاع هذا الأدب أن يبلور لنفسه اتجاها فنيا مكّنت الأدباء والشعراء من البوح والتعبير عمّا يتأجج في صدورهم من الفيوضات الإلهية ، وتصورهم للوجود من خلال عدد من الأشكال الرمزية ، فجادت قرائحهم بشعر عذب سلس يحمل خالص تجاربهم الروحيّة ، كما تنوع النثر عندهم بين الدعاء والتهجّد والوعظ والمناجاة ، ليبلغ التّصوّف رسالة روحيّة تربط الخلق بالخالق ، ورسالة جماليّة متمثلة فيما تميز به الخطاب الصوفي من خصائص فنيّة **.**

يعد التصوف من أهم المباحث الأساسية التي يدرسها الفكر الإسلامي إلى جانب علم الكلام والفلسفة والفكر العربي المعاصر ، وقد حظي باهتمام واسع من قبل فئات مختلفة من الباحثين والدارسين حسب اتجاهاتهم الفكرية وميولاتهم المعرفية ، خاصة بعدما أثار بين المتصوفة أشد المواقف والاختلاف والتناقض في أفكارهم وسلوكاتهم.

**1- مفهوم التّصوّف :**

**أ- لغة :**

اختلفت التّعاريف وتعدّدت الآراء حول أصل تسمية التّصوّف واشتقاقها اللّغويّ ، فهناك من يرجّح اشتقاقها من الصوف.

الصوف : الصاد والواو والفاء أصل واحد صحيح وهو الصوف المعروف يقال كبش أَصْوَفُ وصَوِفَ وصَائِفٌ كلّ هذا أن يكون كثير الصوف ، والصوف للشاة والصوفة أخص منه ...وصوفة : اسم رجل وهو أبو يحي بم مضر ( الغوث بن مرّ بن أدّ بن طابخة إلياس بن مضر ) قوم كانوا يقومون على خدمة الكعبة في الجاهلية ويجيزون الحاج أي يفيضون بهم.

من المفيد أن نتعقب هذه الكلمة لنرى أي الآراء أرجح في تعرف أصلها القديم وهي تحمل أربعة فروض :

الأول **:**  أن يكون الصوفى منسوبا إلى صوفة ، والثانيأن يكون منسوبا إلى الصوفوالثالث أن يكون مشتقامن الصفاءوالرابعأن يكون منسوبا إلى كلمة سوفيا اليونانية.

أمّا صوفة هو اسم رجل كان انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام ، وأمّا الصوف ارجحت التسمية إلى المظهر وهو لبس الصوف ، ومع أن هذا الاشتقاق سليم لغويا إلاّ أن ارتداء الصوف ليس قاعدة عند كلّ الصوفيين حيث نرى بعضهم كان يعدّ ذلك ادّعاء مستندا إلى المظهر ، وأمّا الصفاء والصف نسبة إلى صفاء القلوب ونقاء أسرارها فمن صفت قلوبهم لله تعالى يُكرّمهم ويصطفيهم فيصبحون في الصف الأول عنده يقدّمهم على سواهم.

لم يؤخذ اسم التصوف من لفظ عربي بل أخذ من كلمة أعجمية وهي سوفيا اليونانية التي معناها الحكمة كانت تطلق على مذهب يؤمن أتباعه بوحدة الوجود ، ثم خضعت هذه الكلمة للذوق العربي فقلبت السين صادا فقيل صوفية.

**ب- اصطلاحا :**

التصوف في جوهره حال أو تجربة روحية خاصة يعانيها الصوفي ، ولتلك الحال من الصفات والخصائص ما يكفي في تمييزها عن غيرها مما تعانيه النفس الإنسانية من أحوال أخرى ، وهو محاولة لكشف حكمة الله في شتى جوانب الحياة ، وللحياة رحمة الله المنبثة في السماء والأرض ولشهود جمال الكون العظيم وجلاله وتمتع القلب والرّوح بلذّة المشاهدة للصعود عن طريق ذلك إلى رحاب القدس الأعلى ، ويمكننا تلخيص التصوف في :

التاء : توبة

الصاد : صفاء

الواو : ولاية

الفاء : فناء.

**2- مراحل التّصوّف :**

يمكن تقسيم مراحل التصوف إلى عدة مراحل أساسية يمكن إجمالها في المراحل التالية:

**أ- مرحلة الزّهد :**

انطلق التصوف الإسلامي مع مجموعة من الزهاد والأتقياء والورعين الذين كانوا يعتكفون المساجد ، يقضون حياتهم في عبادة الله وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم نموذجا حقيقيا للزهد والورع والتقوى.

**ب- مرحلة التّصوّف السنيّ :**

تميز التصوف السني خلال القرنين الأولين للهجرة عند المسلمين بمظاهر الالتزام بأوامر الله ونواهيه والاقتداء بحياة النبي صلى الله عليه وسلم وما تنطوي عليه من عبادة وزهد في الدنيا والإعراض عن مباهجها والإقبال على التوبة وتجنب المعاصي ، ومنه تلخصت وجهتهم الصوفية في :

مظهر بارز تمثل في ترك مظاهر الدنيا من مال وجاه وعيشة رغدة وباطنها مراقبة أفعال القلب الذي هو مصدر الأفعال ومَبْدؤها ، وغرضها النجاة من عقاب الله ، وقد أطلق على هذه المرحلة اسم مجاهدة التقوى، وأمّا المظهر الثاني تمثل في رفض زينة الدنيا من مال وجاه وشهوات البطن والفرج ومقاومتها عن طريق الصيام المتواصل وقيام الليل والتهجد ...والهدف من تقويم النفس بهذه الطريقة هو الوصول إلى مراتب الأنبياء والصديقين والشهداء والصلحاء مفد أطلق على هذا النوع من المجاهدة النفسية اسم مجاهدة الاستقامة.

**جـ- مرحلة التّصوّف الفلسفيّ :**

نشأ عن اهتمام الصوفية بعلوم المكاشفة التماسا لمعرفة الله ، واكتساب علومه ، والوقوف على حكمته وأسراره ، والاطلاع على حقائق الموجودات.

**3- التّصوّف في الأدب:**

كان الصوفية يعرفون باسم القراء والزهاد والنّسّاك ، وكان ملحوظ أنهم من أقطاب الأدب والبيان ، والمؤكد أن الجاحظ اهتم بهم لحظ فيهم شيئين (جودة الأدب وقوة الأخلاق) ، يقول الجاحظ في مطلع كتاب الزهد : « نبدأ باسم الله وعونه بشيء من كلام النّسّاك في الزهد وبشيء من ذكر أخلاقهم ومواعظهم .» ، فهو يرى في الكلام صورة غير صورة الأخلاق والمواعظ والفرق واضح بين قول ابن سرين : « ما حسدت أحدا على شيء قط» ، وقول أبي الدّرداء : « كان الناس ورقا لاشوك فيه ، وهم اليوم شوك لا ورق فيه ».

فالعبارة الأولى خُلُقٌ محض ، والعبارة الثانية أدب صرف ، وكانت الأولى خُلُقاً محضاً لأنها تعبر تعبيرا ساذجاً عن معنى من أشرف المعاني الخُلُقية ، وكانت الثانية أدباً صِرفاً لأن جمالها يرجع إلى ما وشّاها به القائل ، وكلتا العبارتين صدرتا عن أنفس مشبعة بروح التصوف.

وكلام الزهاد والنساك كثير ، اهتم به الجاحظ وابن قتيبة ، وغيرهما من المؤلفين ، ولا شك أن الصور الأدبية طانت مما لحظه مَنْ جَمَع كلام أولئك الرجل ، وكان أكثر الصوفية معروفين بسعة الاطلاع وكثرة الحفظ ، وكان في شريش صوفيّ حافظ للشعر فلا لا يعرض في مجلسه معنى إلا وهو ينشد عليه ، فاتفق أن عطس رجل فشمّته الحاضرون فدعا لهم ، فرأى الصوفي أنه إن كان شمّته قطع إنشاده بما لا يشاكله من النظم ، وإن لم يشمته كان تقصيرا في البر...وهذا الخبر في جملته فكاهة ، ولكنه دليل على هيام الصوفية بالثقافة الأدبية.

لا مفر من الاعتراف بأن الصوفية كان لهم وجود أدبي ملحوظ ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد عُرِفت عنهم ألفاظ وتعابير دوّنها المؤلفون ، وتلك الألفاظ والتعابير هي ثروة لغوية يقام لها وزن حين تُدْرَسُ المصطلحات.

**4- مفهوم الأدب الصوفي :**

يمثل الأدب الصوفي لونا من ألوان الأدب الرفيع تحمل في طياته أسمى معاني وخصائص السمو الروحي...وهو الأدب الذي أنتجه الزّهاد والصوفية بمختلف اتجاهاتها السنية والفلسفية ، ويبحث في النفس بعمق فلسفي يسعى لتطهير النفس والروح من حب الدنيا وزينتها ، وإدخال الطمأنينة إليها ويطرح في أكمل صوره الفنية التجريدية كوامن النفس من حب وجمال وقيم أخلاقية ومعرفة ، وفي مضمونه أيضا الخطوات التي يتدرجها السالك - المريد- في تطهير نفسه والبلوغ بها مرتبة الكشف ، كل ذلك يعكس الروح الدينية العالية عندهم وهو إما قصائد منظمة أم نثرا فنيا راقي في البيان وأغراضه هي: الامتداح النبوي ، رسائل الشوق إلى الأماكن المقدسة -الأحزاب والأوراد - ، التوسلات – الحكم - ، الرسائل الصوفية ( المكاتبات السنية ) – الحكايات الكرمية – شعر الزهد ، شعر التصوف السني ، شعر التصوف الفلسفسي.

نال الأدب الصوفي حظا ونصيبا عظيما من طرف المؤلفات العربية والغربية بما فيها الاستشراقية ، فتعددت مفاهيمه بين هذا وذاك كفلسفة ذاتية أو إلهامات وجدانية تضطلع من الأديب الصوفي بحكم تجربته الإبداعية.